تفسير سورة آل عمران من الآية (155) إلى (160)

الدرس (46)

فضيلة الشيخ زيد البحري - حفظه الله -

بسم الله الرحمن الرحيم

 الحمد لله رب العالمين وأصلي وأسلم على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين ، أما بعد .

* فكنا قد توقفنا عند قول الله عز وجل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ ذَكَر الله عز وجل هذه الآية بعد أن ذكر الظن السيء الذي ظنه المنافقون ليبيِّن أن الصحابة رضي الله عنهم والذين فروا يوم أحد فعلوا ذلك بسبب ما جرى من الشيطان فقال عز وجل هنا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ وهو جمع الصحابة رضي الله عنهم وجمع كفار قريش و﴿ الْجَمْعَانِ ﴾ أي التقاء الجيشين كما قال عز وجل في غزوة بدر﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾

﴿ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ ﴾ أي أوقعهم في الزلة وذلك أن كثيرا من الرماة عصوا أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ وهذا يدل على ماذا ؟ يدل على أن الصحابة رضي الله عنهم ليسوا بمعصومين فهم كغيرهم من البشر ﴿ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ ﴾ ببعض ما كسبوا ومن ذلك ما حصل منهم من عصيان أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما أمرهم أن يبقوا على الجبل ﴿ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ ﴾ ورحمة الله عزوجل واسعة لأنه عز وجل لو عاقب عباده بكل ذنب فعلوه فإن الهلاك يكون محتمًا عليهم قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ ولكن هوعز وجل يعاقب على بعض الذنوب ولذا قال عز وجل ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (30) ﴾ وقال تعالى ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ وقال تعالى ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾

﴿ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ ﴾ فالله عز وجل تجاوز عنهم وذلك نظير هذه الآية ما مر في الآيات السابقات كما قال عز وجل ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ﴾ إما هو عز وجل كرر ذلك من باب تطمين نفوسهم من أنه عز وجل خاطبهم بالعفو في الآيات السابقة أو أن قوله عز وجل ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ﴾ هذا في شأن الرماة الذين عصوا أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويكون العفو هنا في شأن من فرّ من المعركة ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (155) ﴾ فهو عز وجل غفور لكل ذنب وواسع المغفرة وحليم هو عز وجل فلا يعاجل عباده بالعقوبة إذ لو عاجلهم بالعقوبة لهلكوا ومن ذلك فقد غفر الله عزوجل ما جرى من الصحابة في غزوة أحد وقد حلم عز وجل بهم ولم يعاجلهم بالعقوبة .

* ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ هنا نادى الله عز وجل أهل الإيمان بأن لا يتشبهوا بالكافرين بعموم الكافرين ومن هؤلاء الكافرين المنافقون ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ يدل لذلك ما سيأتي من آيات ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ ﴾ وهنا ماذا قال عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي لأي غرض من الضرب في الأرض لتجارة أو غير ذلك وقد لا يكون المقصود أيضا التجارة وإنما المقصود يكون شيئا آخر لأن الضرب في الأرض للتجارة قد يكون من مصلحتهم لكن الضرب هنا إما لأمر يحتاجون إليه من غير تجارة أو للتجارة قد يدخل في ذلك المهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ كيف يقولون لهم هذا القول اللام هنا ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ ﴾ لإخوانهم اللام هنا ليست للتعدية لأن هؤلاء قد ماتوا وقتلوا وإنما اللام هنا للتعليل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ ﴾ أي من أجل إخوانهم الذين ماتوا أو قتلوا وهم إخوانهم من حيث النسب أو من حيث ما يجمعهم من بلد ومن ثم فإنه يجب أن يتنبه هناك بعض من ينتسب إلى أهل العلم يقول إنه يعني الكافر يقول هو أخ لنا فإذا سئل عن ذلك قال هو أخ لنا من حيث الأرض فنحن نجتمع كلنا على هذه الأرض فهم أخوة لنا ولا شك أن هذا مخالف للكتاب ومخالف للسنة فإن الكفار ليس بإخوان لنا وإنما هم أعداء ومن ثم فإن الأخوة الحقيقية كما قال عز وجل إنما هي الأخوة في الإيمان ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ومن ثم فإن هذا القول الذي يقوله هؤلاء ممن ينتسب إلى العلم هؤلاء يتشبهون بهؤلاء الكفار أو بهؤلاء المنافقين ومن ثم فإنه إذا قيل على وجه الإجمال أو حتى على وجه التفصيل من أنهم إخوان لنا في الأرض يكون في ذلك تدليس على عوام الناس فيجب الحذر من ذلك أشد الحذر﴿ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ لأي أمر من الأمور﴿ أَوْ كَانُوا غُزًّى ﴾ يعني أنهم ذهبوا للقتال ﴿ لَّوْ كَانُوا عِندَنَا ﴾ أي بَقَوا كما بقينا وما خرجوا ﴿ مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ أي ما جرى لهم موت ولا قتل وهنا قدّم الموت على القتل باعتبار الترتيب ﴿ لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ فالقتل لكلمة ﴿ غُزًّى ﴾ والموت لكلمة ﴿ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ ﴾

﴿ مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ ﴾ أي هذا القول المتقدم منهم الذي قالوه وهو قولهم ﴿ لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ ﴾ القول ﴿ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ ﴾ حسرة بمعنى أن قلوبهم تكون متألمة و بها الحسرات لم ؟ لأنهم لم يؤمنوا بقضاء الله وبقدره ومن كان مؤمنا بقضاء الله وبقدره فإن نفسه تطمئن ومن ثم فإن من أراد أن يكون مرتاح البال سعيد الفؤاد مطمئن القلب عليه أن يرضى بقضاء الله وبقدره لكن هؤلاء لمّا لم يرضوا بقضاء الله وبقدره فإن ذلك القول يكون حسرات عليهم في قلوبهم ﴿ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ ﴾ والله يحيى ويميت هو عز وجل يحيى ويميت فمن شاء الله عز وجل أحياه إلى ما أراد عز وجل ومن شاء الله عز وجل أماته حيث أراد عز وجل فلا أحد يعترض على قضاء الله وعلى قدره لم ؟ لأنه قال لما قال: ﴿ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ ﴾ مرّمعنا ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ۗ ﴾ كل ذلك بمقدار﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (34) ﴾ وذكر قوله ﴿ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ ﴾ قدم الحياة باعتبار الرد على هؤلاء من أنه عزوجل يشاء فيحيي ويبقى من يشاء وفي هذا دليل على أن من خرج وضرب في الأرض يعني سافر في الأرض أو أنه جاهد من أن ذلكم الجهاد أو ذلكم الضرب في الأرض فإنه لا يقرب الموت للعبد ﴿ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ ﴾ فما تلك بأمور تميت الإنسان أو تحييه وإنما الذي يحييه ويميته هو الله لا السفر في الأرض ولا الدخول في المعارك ﴿ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (156) ﴾ هو عزوجل عالم بما يفعله هؤلاء بصيرعزوجل بما يعمله هؤلاء فإن ما ذكروه هو قول أيضًا هو عز وجل بصير بأعمالهم كما أنه سميع لقولهم الذي قالوه ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (156) ﴾

* ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ ﴾ ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ قدّم القتل هنا باعتبار أن من يجاهد في سبيل الله عز وجل فإنه عرضه إلى أن يُقتَل أكثر من أن يكون عرضةً للموت ولذا قال ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ ﴾ أي مُتُّم في سبيل الله أو مُتُّم في سبيل الله لأن كل شخص يموت وليس كل من مات يكون مصيره مصيرًا حسنًا ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ ﴾ بمعنى أن من يذهب إلى الجهاد فهو إما أن يقتل أو يموت من غير قتال فقدَّم القتال والعلم عند الله من باب أن القتل في الجهاد يكون أكثر من الموت فيه ومن مات في الجهاد في سبيل الله فإن له أجره ولذا قال عز وجل كما في سورة النساء ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ ﴾ فيما يتعلق بالهجرة ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ ﴾ ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وكما سلف وهي قاعدة إذا قلنا وقلنا مرارًا قلنا إذا تحدثنا عن الجهاد فالمقصود من ذلك الجهاد الذي توفّرت فيه شروط الجهاد المذكورة في القرآن وفي السنة على فهم سلف هذه الأمة والجهاد في سبيل الله لما سُئِل عنه صلى الله عليه وآله وسلم كما ثبت في الصحيحين قال: " من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله " .

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (157) ﴾ ﴿ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ يغفرعز وجل ذنوب الشهيد ولذا قال صلى الله عليه وآله وسلم لما سأله رجل كما ثبت عنه : أرأيت إن قاتلت محتسبًا مقبلًا غير مدبر فقتلت فتكفّر عني ذنوبي ؟ فقال صلى الله عليه آله وسلم: " نعم " ثم بعد ذلك ناداه قال: " إلا الدَّين فإن جبريل أخبرني بذلك " فإذًا تُغفر ذنوب الشهيد إلا الدَّين لأن الدَّين حق من حقوق الآدميين وحقوق الآدميين مبنية على المُشاحَّة وعلى المطالبة وليست كحقوق الله المبنية على المسامحة لمغفرة من الله و أعظِم بذلك من مغفرة هي من الله عز وجل ﴿ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ وتأمل ما مرَّ معنا في قوله تعالى ﴿۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أيضًا من المسارعة وهذا يؤكد ما ذكرناه من أن قوله ﴿۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي سارعوا إلى مغفرة الله بجميع الأعمال الصالحة ومن ذلك ما ذُكر هنا وهو الجهاد في سبيل الله ﴿ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ ﴾ إذا ذُكِرت المغفرة وحدها دخل فيها ما يتعلق بحصول المطلوب بمعنى أن الله عزوجل إذا ذَكَر المغفرة وحدها فإنها تتضمن أن يزول عن الإنسان ما يخافه و يحصل له مطلوبه وإذا ذكرت الرحمة أيضًا كذلك تزول عنه المخاوف و تحصل له المطالب فإذا اجتمعتا كانت المغفرة لزوال المخاوف والرحمة لحصول المطالب ولذا نقول في الصلاة بين السجدتين ربي اغفر لي وارحمني لمغفرة من الله أي لزوال الذنوب التي تؤذيه ﴿ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ ﴾ حصول المطلوب ورحمة الله عزوجل واسعة.

 ﴿ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (157) ﴾ أي مغفرة من الله ورحمة منه خير وأطلق ، خيرفي الدنيا وفي الآخرة لهذا الشخص ﴿ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (157) ﴾ مما يجمع أهل الدنيا وتأمل معي قال عز وجل ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (58) ﴾ هذه الآية ذكرت الإسلام والقرآن ومعلوم أن العلم إنما يؤخذ من القرآن ويؤخذ من السنة فدلّ هذا على أن العلم في قوله تعالى والذي دلت عليه الآية ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (58) ﴾ دلّ على أن العلم نوع من أنواع الجهاد بل إن العلم الشرعي أعظم نوعَي الجهاد أعظم من الجهاد في المعارك ولذا ماذا قال عز وجل قال: ﴿ وَجَاهِدْهُم ﴾ أي بالقرآن ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ دلّ هذا على أنه هو الجهاد الأعظم .

* ﴿ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (157) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (158) ﴾ ذكر هنا الموت قبل القتل لأن آخر الآيات تتعلق بالحشر ومن ثم فإنه إما أن يكون من باب التنويع في الأسلوب بحيث يحضر عقل وقلب وسمع وجوارح و كيان الإنسان من أجل أن يتأمل ويتدبر، وإما أن يكون تقديم الموت على القتل باعتبار أن أحوال الناس في هذه الدنيا يكون فراقهم من الدنيا عن طريق الموت وليس عن طريق الجهاد ؛ لأنه من يقاتل قله ولذا قال ﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ ﴾ أي باعتبار أن الأكثرإنما يحشرون إلى الله ويرجعون إلى الله ويموتون عن طريق الموت لا عن طريق القتل ﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (158) ﴾ أي تجمعون لأن المرد إلى الله ، الإنسان مفارق هذه الدنيا لا محالة فإن الخوض في الجهاد في سبيل الله لا يقرب للعبد موت ، لا يقربه للموت ﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (158) ﴾
* ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ أي فبرحمة (ما) هنا زائدة و يطلق عليها بعض المفسرين من باب تحسين وتلطيف اللفظ صلة ؛ لكن لتَعلَم ولقد كررنا ذلك مرارًا  ما مِن شيء زائد في القران إنما تكون زيادته من أجل الإعراب فقط ، أما من حيث المعنى فلا يمكن أن يكون هناك حرف في القران إلا وله فائدة وله معنى ، وهنا الزيادة للتأكيد ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ ﴾ أي فبرحمة من الله ، برحمته عزوجل ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ ﴾ ودلّ هذا على ماذا ؟ على أن من أعطاه الله عز وجل صفة حسنة من الصفات الحسنة من الرفق أو اللين أو العلم أو الشجاعة أو ما شابه ذلك أو الكرم أو ما شابه ذلك فهذا من الله عز وجل لا بحوله ولا بقوته .

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ ﴾ الخطاب لمن ؟ خطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ ﴾ يعني سَهُلت أخلاقك لهم وهو صلى الله عليه وآله وسلم كيف لا يكون كذلك والله عزوجل مدحه فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (4) ﴾ ولذلك ثبت لمّا قيل لعائشة رضي الله عنها: ما هو خُلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقالت له: ألا تقرأ القرآن ؟ فقال: بلى ، قالت رضي الله عنها: " كان خُلُقُه القرآن " .

ومن كان خُلقه القرآن فإنه ولا شك سيكون في أعلى مرتبة من  حسن الأخلاق ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا ﴾ فظّا: أي في أفعالك وفي أقوالك ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا ﴾ شديدًا  ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ ﴾ قلبك غليظ عليهم ﴿ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ وتفرّقوا ودلّ هذا على ماذا ؟ دلّ هذا على أن من كان مسؤولًا لأي جهة من الجهات في الدوائر الحكومية ويشمل ذلك الولاية الصغرى والولاية الكبرى ، دلّ هذا على أنه متى ما كان لينًا وسهل الأخلاق وليس بغليظ القلب وليس بفظ فإن من تحته يحبونه ولذلك النبي صلى الله وآله وسلم كما جاء في صحيح مسلم وهذا شامل الولاية العامة والولاية الخاصة ، قال: -إمّا دعاءً وإمّا  مُخبرًا يحتمل هذا ويحتمل هذا- " اللهم من وَلِيَ من  أمر أُمّتي شيئا فَرَفق بهم فارفُق به ، ومن وَلِيَ من أمر أُمّتي شيئًا فشَقّ عليهم فشُقق عليه "

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ ودل هذا على ماذا ؟على أن هذه الصفات المذكورة تجمَع ولا تفرّق ﴿ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ ﴾ فاعفُ عنهم: أي ما جرى وما يجري منهم مما يصدر منهم ومن ذلك لمّا عصوكَ في قضية الوقوف على الجبل ومن ثم  فالله عز وجل عفا عنهم أيضًا فيه إشارة إلى أنك يا محمد تعفو عنهم وهذا ليس خاصًّا بما جرى في غزوة أحد بل هو شامل ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ ﴾ هذا فيما يخص نفسك ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ بمعنى ادعُ الله أن يغفر لهم مما جرى من تقصير في حق الله عز وجل فيكون قوله ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ ﴾ أي في حقك يا محمد ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ أي فيما يتعلق بحق الله عز وجل ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ وهذا ليس كحال المنافقين فإن هؤلاء أهل الإيمان لكن أهل النفاق لا يرضون بذلك ولا  يرضون أن يستغفر لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهم الذين ذكرهم الله عز وجل في هذه السورة مما جرى منهم وما جرى منهم من غزوات بعد غزوة أُحد كما قال عز وجل: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (5) ﴾ مع أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان حريصًا على أن يستغفر لهم ، ولذا ماذا قال لهم الله عز وجل ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾

﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ ﴾ الأمر هنا  أتى بـ(ال) مما  يدل على ماذا ؟ مما يدلّ على أنه صلى الله عليه وآله وسلم يشاورهم في جميع الأمور التي بها مصالح للعباد أما ما جاء به الوحي فلا مشورة وإنما المشورة فيما يُحتاج إليه من مصالح فيما يتعلق بأحوالهم ولكن وقال هنا ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ وشاورهم في الأمر لأن المشورة بها تكثر الآراء و إذا كَثُرت الآراء من أهل المشورة من أهل العقل ولا شك عن الصحابة رضي الله عنهم أهل العقل الراجح هنا تتضح الأمور أكثر وأيضا ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ حتى تطمئِن قلوبهم فلا تنفرد عنهم برأي و أيضا فيه تشريع لمن سيأتي ممن تكون له ولاية أن يُشاوِر أهل الحل والعقل ، وأيضا فيه ماذا ؟ فيه تطييب لنفوسهم لأن من بينهم من كان رئيسًا في قومه في الجاهلية ، فطرح الشورى منك لهم يأتي بهذه الفوائد والحكم العظيمة إلى غيرها من الفوائد العظيمة ولذا قال عز وجل: عنهم وعن أهل الإيمان ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ وبالفعل حصل منه صلى الله عليه وآله وسلم فإنه قبل أن يخرج من المدينة كما مرّ معنا شاورهم هل نبقى في المدينة أم لا ؟ مع أنه كان يريد أن يبقى في المدينة لكن مع ذلك من لم يحضر غزوة بدر قالوا: نريد أن نخرج يا رسول الله . ومع ذلك ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ وجرى ما جرى كما بيّنا ذلك .

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ ﴾ العزم هو إقبال النفس على فعل الشيء الذي استُشِير فيه ، وكذلك يشمل الشيء الذي لم يُستَشر فيه بمعنى أن الإنسان نفسه أقبلت على فعل شيء يرى أن فيه المصلحة التي تعود عليه إما في دينه وإما في دنياه فلا يتردد ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ ﴾ ومن يتوكّل على الله عز وجل فهو حسبُه كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ لأن الإنسان إذا كان عازمًا ثم بعد ذلك حصل عنده تردد لأن بعضًا من الناس لا يكون عازمًا في كل أحوالِه قد تستبين له الأمور واضحة من حيث المصالح ومع ذلك يتردد ، ومع ذلك فإنه يخسر أشياء كثيرة .

﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ ﴾ لم ؟ التعليل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159) ﴾ إثبات محبة الله عز وجل بما يليق بجلاله و بعظمته من غير تحريف ولا تكييف ولا تمثيل ومرّ معنا توضيح ذلك أكثر عند قوله عز وجل: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159) ﴾ المتوكلين عليه في كل شيء ، و مع التوكل على المسلم أن يبذل الأسباب لأن بذل الأسباب مما قدّره الله عز وجل وممّا أمر به .

 فليس المتوكل من وضع يده في فم الثُعبان وليس المتوكِّل من فتح الباب للسُرّاق وإنما عليه أن يفعل الأسباب . فيتوكل العبد على الله مع فعل الأسباب ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159) ﴾ سبحان الله ! هذا يدل على ماذا ؟ يدل على أن العبد إذا سمع مثل هذه الآيات وكما قال عز وجل في آيات كثيرة ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ إلى غير ذلك من هذه الآيات فإنه حينها يطمئِن قلبه بمعنى أنه إذا عزم على أمر و توكل على الله عزوجل ربما أن ما كان يتوقعه من مصلحة لا تحصل له لكن قلبه يكون حينها مطمئنًّا باعتبار أنه توكل على الله ولعل الله صرَفَه عن هذا الشيء لخير أعظم سيأتيه.

 ولذلك ثبت عن ابن مسعود رضي الله عنه من أنه قال قال رضي الله عنه " إن العبد ليَهِمُّ بالأمر من الإمارة ومن التجارة فيقول الله عز وجل لملائكته: اصرفوه عنها فإنه إن حصل عليها أدخلته النار فيُصرف عنها فيَظلّ العبد يقول سبَقني فُلان (يعني إليها) دَهَاني فلان وما يدري نعمة الله و فَضُل الله عليه "

﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159) ﴾ ولذلك فعلها صلى الله عليه وآله وسلم لما دخل ولبس لأمَتَهُ ، فقال من قال: " لعلنا قلنا بأمرٍ لم يرضَه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلنبقى يا رسول الله في المدينة " قال: " ما كان لنبيٍّ لبس لأمَتَهُ أن يضعها حتى يُقاتل " ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159) ﴾

* ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ ﴾ وهذا مما يتضمنه ماذا ؟ التوكل على الله عز وجل بمعنى أنك تتوكل على الله بحيث ينصُرُك الله ، تتوكل على الله لأنك تعلم أن الناصرهو الله فالمنصور من نصره الله والمخذول من خذله الله ولذا قال تعالى : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ ﴾ مهما بلغت قوة العدو ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فقال عز وجل هنا: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ ﴾ اطمئنوا، اطمئنوا ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ ﴾ وتأملوا ﴿ وَإِن يَخْذُلْكُمْ ﴾ ولذلك يدعو العبد ربّه أن لا يخذله الله عز وجل ﴿ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ ﴾ ولو قَوِيَت لكم الأسباب من السلاح من القوة من العتاد وتأمل ما جرى في حُنين ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾ بل كما قال بعدها ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ مع سعتها ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (25) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ سبحان الله ! في أول أمر حنين هزيمة في النهاية نصر، هنا في أُحد ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ ﴾ في أول الأمر؛ لكن لما خالفتم وحصل الخُذلان لكم بسبب تلك المعصية فما الذي جرى ؟ انقلبت الموازين في لحظة ﴿ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (160) ﴾

 ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ انظر قدّم كلمة ﴿عَلَى اللَّهِ ﴾ لأنه لو كان في غير القرآن ( فليتوكل على الله المؤمنون ) يُقدَّم لأن أصل الفعل أن يكون في المقدمة لكن قال ﴿ وَعَلَى اللَّهِ ﴾ أي لا على غيره ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ إذن أهل التوكل هم أهل الإيمان والإيمان يزداد بالتوكل ولذا قال تعالى ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ ليسوا بشيء ، و كما قال عز وجل ﴿ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .